مقدمة

جاء فى القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾ [سورة العصر: الآيات ١ - ٢]. لذلك رأيت أن نجرى حوارًا بين العصر بكل ما يحمله من هموم وشجون والإنسان المعنى بقضايا الإصلاح قبل غيره؛ لأن ذلك الحوار يحدد المسار نحو المستقبل وعلاقة الأحداث والمواقف بالظروف والتوقيتات، وسوف نجرى الحوار بين الإنسان والزمان بافتراض تثبيت عنصر المكان وهو المنطقة التى نعيش فيها وننتمى إليها، وسوف نعالج فى وضوح وأمانة عددًا من القضايا المؤثرة فى حياتنا والمواكبة لروح العصر، وهذا الحوار بين الإنسان والزمان بدأته فى صيف عام ١٩٦٦م وقبيل النكسة بشهور قليلة لأننى كنت أستجيب أيامها لتساؤلات شاب فى مفترق الطرق وفضول باحث عن الحقيقة، ولقد أودعت أفكارى وقتها فى كتابى «حوار الأجيال» وهأنذا أعود إلى ما بدأت منذ أكثر من أربعين عامًا لكى يلتقى الإنسان والزمان فى حوار مختلف، حيث الدنيا قد تغيرت والقضايا اختلفت والأولويات تبدلت فأنا مشغول ـ مثل عشرات الملايين من المسلمين والمسيحيين فى المنطقة العربية ـ بالحفاظ على الدولة المدنية، التى تحققت مع ميلاد الحكومة الحديثة والنظام السياسى الذى يأخذ بالقانون الوضعى مع الاحترام الكامل لشرائع السماء وسموها ومكانتها العالية.

والآن دعنا نتابع الحوار الذى يدور بين الإنسان والزمان فى منطقة هادئة فوق هضبة الأهرام غير بعيد عن مجرى النهر الخالد، إذ يوجه الزمان حديثه للإنسان قائلًا: «ما هذا الصخب الذى تعيشه مصر وما أسباب الضجيج المتصاعد من أرض الكنانة؟»، فيرد الإنسان: «إنه القلق الذى يصيب البشر فى فترات التحول عندما تستيقظ الشعوب وتصحو الأمم فتزداد التجاوزات ويخرج الجميع على النص، إنه القلق الذى يدفعنا إلى الحرص على الوطن فى ظل الدماء التى تحيط بنا والأشلاء المتناثرة فوق الأرض العربية والإسلامية، إننا أمام تحدٍّ غير مسبوق نشعر معه أننا لسنا فى نهاية العالم أو فى نهاية التاريخ كما زعم بعض فلاسفة العصر، ولكننا أمام شىء يشبه نهاية الزمان، فالكل محبط ومضطرب وغاضب».

وهنا يبادر الزمان قائلًا: «إنكم هنا فوق هذه الأرض الطيبة حيث تزاوجت الحضارات وتعاقبت الثقافات تستحقون أكثر بكثير مما أنتم عليه، ولكن تراكم الأخطاء وغياب الرؤية هما اللذان يمارسان دورهما السلبى فى حياتكم، ويبدو أن الكثير من مشكلاتكم ينبع من فقر المنهجية، فالهنود بدءوا معكم فى نفس الوقت منذ ستة عقود ولكنهم واصلوا الطريق وتوافر لهم عنصرا الجدية والاستمرار، أما أنتم فلقد اخترتم الحلول السهلة وفضلتم المظاهر السريعة، وعليكم أن تدركوا الآن أن هناك أجيالًا تبنى وأخرى تجنى، بل إننى أشعر بدهشة لكثير مما شهدناه فى العصر الناصرى عندما كنتم تعانون من غياب التعددية السياسية وفقر الديمقراطية، ومع ذلك كانت مساحة الليبرالية الاجتماعية واسعة ودرجة التسامح الدينى متناسبة مع عصرها، أما الآن فالصورة مختلفة تمامًا، فمساحة الحرية السياسية تتزايد ومع ذلك فإن الانفتاح الاجتماعى يتراجع والتعصب يزداد والتطرف يبدو وكأنه سمة ذلك الزمن الردىء».

وهنا مط الإنسان شفتيه مبديًا امتعاضه وحدَّث الزمان قائلًا: «إننا هنا فى بلد العجائب وصدق من قال: «كم فى مصر من المبكيات»، بل إن «المتنبى» فى بيته الشعرى الشهير عندما تحدث عن نواطير مصر وثعالبها إنما كان يشير إلى واحدة من أغنى بلاد الأرض، حيث يجرى استنزاف ثرواتها منذ سبعة آلاف عام ولكن شعبها صامد، وإذا كانوا يقولون إنه قد بنى الأهرام وحفر قناة السويس وشيد السد العالى كل ذلك بالسخرة، إلا أننا نقول إنه شعب متخصص فى صناعة الحضارة وتصدير الثقافة وحمل شعلة التنوير، فلقد عرف الدولة المدنية مع عصر محمد على واكتملت له منذ أكثر من قرنين من الزمان ملامح المجتمع العصرى بمقوماته وركائزه، لذلك فإننا عندما نشعر بزحف التيارات الدينية على الحياة السياسية فإننا ندرك أننا أمام مواجهة لابد من حسمها بالعقل والحوار والحكمة لأن تقويض دعائم المجتمع هو تراجع قومى عام يعود بنا عشرات السنين إلى الوراء ويفتح بابًا للفوضى الفكرية والتعصب الدينى والصراع الطائفى وربما الصدام الطبقى أيضًا»، فرد الزمان منتقدًا وقال للإنسان: «لماذا يقلقك إلى هذا الحجم ذلك الاشتباك بين الدين والسياسة ولا يقلقك الاشتباك بين السلطة والثروة؟ فالانحرافات موجودة وجيوب الفساد قائمة والحاجة إلى الإصلاح ملحة، إنكم لا يجب أن تغطوا خطاياكم وتخفوا عجزكم على حساب الآخرين، فلابد من المصارحة الكاملة والمكاشفة الحقيقية والشفافية بغير حدود».

وهنا نظر الإنسان إلى الزمان نظرة جادة وعميقة وقال له: «إننى أوافقك فى إشارتك إلى السلبيات التى تحيط بنا والفساد المنتشر فى حياتنا وأرى ضرورة الإسراع فى خطوات الإصلاح الجدى على نحو يحسم فيه المجتمع أمره ويسعى لبناء ذاته فى كافة قطاعاته،

ودعنى أذكرك بأن هناك نوعين من التناقض؛ فهناك تناقض أساسى وتناقض ثانوى ولا يجب أن نخلط بين الاثنين وإن كانت هناك ثوابت لا خلاف عليها تصلح معيارًا لتقويم ما أشرنا إليه، ولذلك فإننى أقول لك وبوضوح إن هدفنا يجب أن يتجه إلى مواجهة الخطر الأساسى المتمثل فى تراجع القرار العقلى وإحلال الخرافة بديلًا عن العلم وشيوع ثقافة الغيبيات فضلًا عن اشتباك الدين بالسياسة على نحو قد يؤدى إلى تقويض المقومات الأساسية للمجتمع وإشاعة فكر انعزالى يعود بنا إلى الوراء، وذلك فى حد ذاته خطر يتهدد الشعوب العربية والإسلامية نتيجة ضعف المجتمع المدنى وانكماش مساحة الليبرالية الفكرية والاجتماعية، بالإضافة إلى إقحام فكر أحادى لا يملك أبعاد الرؤية الشاملة لما يدور حولنا فى عالم اليوم، لذلك فقد حكم ذلك النوع من الفكر الإقصائى على نفسه بالعزلة وهو يسعى دون أن يشعر إلى عزلة مصر ذاتها غير مدرك أن موقعنا على خريطة العالم لا يتحدد فقط برأينا فى الآخر ولكن أيضًا برأى الآخر فينا، فنحن لا نعيش وحدنا فوق هذا الكوكب بل تشاركنا فيه ملل ونحل وثقافات وحضارات وأصول وأعراق قد نتفق معها أو نختلف ولكن السفينة البشرية تضم الجميع فى النهاية».

وهنا تطلع الزمان إلى الأفق البعيد وقال: «كفانا فلسفة وتنظيرًا، قل لى بوضوح إذا كنت ترفض الاشتباك بين الدين والسياسة وأيضًا الاشتباك بين السلطة والثروة فعليك أن تقف ضد الاثنين معًا فكما تخشى من التطرف يجب أن تقلق كذلك من الفساد»، عندئذ رد الإنسان: «دعنى الآن أقولها لك صريحة إن القضاء على الفساد وفك الاشتباك بين السلطة والثروة قد يحتاج إلى سنوات قليلة، أما الاشتباك بين الدين والسياسة وسقوط الدولة المدنية فقد يحتاج الأمر فى إصلاحه لعدة عقود وربما لعدة قرون أيضًا»!

د. مصطفى الفقى

أغسطس ٢٠١٥م